مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 1112-7163
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

الإشاعـــة في روايـــة "لوعـــة الغاويـــة" بنيتُها السيكولوجية ووظائفُها السردية

حميد بن عامر الحجري
كلية العلوم التطبيقية بصور، ص.ب : 484 صور ، سلطنة عمان .
في صور/ سلطنة عمان
sulafalfekr@gmail.com

ملخص -

تحتلُّ الإشاعة موقعًا محوريًّا في رواية "لوعة الغاوية" للروائي السعودي عبده خال؛ فهي المحرّك الأساسي لسلسلة من الأحداث المفصليَّة التي حكمت مسار الرواية وتركت آثارها العميقة في بُنَى شخصياتها. ويمكن الزعم –بكثير من الاطمئنان- إلى أن الإشاعة تحولت –في هذا العمل الروائي- من مجرد حدث ضمن سلسلة أحداث الرواية إلى بنية سردية عامة انتظمت مختلف عناصر العمل الروائي وأثَّرت فيها وتأثَّرت بها.

في هذه الدراسة نتحرَّك في اتجاهيْن متكامليْن: يُعْنى الأول بمراجعة أدبيات الإشاعة في علميْ النفس والاجتماع، لاستخلاص ملامح بُنيَتِها السيكولوجية الاجتماعية، وتوظيفها في فهم الإشاعة الجوهرية التي تأسَّست عليها هذه الرواية: كيف نشأت؟ وما العوامل التي ساعدت على انتشارها؟ ولماذا كانت بتلك القوة التي حملت مجتمعًا بأكمله للتحرك ضد الشخصية التي أُلبِسَتْ ثوبَها؟

ويشتغل الاتجاه الثاني على رصد الوظائف السردية التي اضطلعت بها الإشاعة في إشادة معمار الرواية على مستويات: الشخصيات بسماتها الثابتة والمتحولة، والحبكة بما تتضمنه من سلسلة أحداث متعاقبة وعقدة وحل.

لقد أدرك الروائي السعودي عبده خال أن الإشاعة -بما تنطوي عليه من غموض وإثارة- قادرة على تأمين بنيةٍ سرديةٍ شائقةٍ، مرنةٍ، ثريَّة، وقادرة في الوقت نفسه على الكشف عن نفسيات الفاعلين الاجتماعيين، وإضاءة قوانين الفعل الاجتماعي التي تنزلق فيه مصادر القوة –في أحيان كثيرة- من المتن والمركز إلى الحواشي والأطراف.

The rumor in the novel *Lawaat Al-Ghawia:*
Its psychological structure and narrative functions

Dr. Humaid Amur Al-Hajri
Assistant Professor of Arabic Language in Applied Sciences College of Sur/ Sultanate Of Oman

Abstract -

The rumor takes a central place in the novel ***Lawaat Al-Ghawia***, by the Saudi novelist Abdu Khal, as it acts as the main driver for a series of crucial events that govern the track of the novel development and leaves deep impactson the structures of its characters. It can be claimed, to a great extent of certainty, that the rumor in this narrative work turned from a mere event that occupies a minor position in a series of eventsinto an overriding narrative structurewithin which all other elements of this work fell into place and on which they influenced and were influenced by in return.

In this paper we followtwo lines of inquiry that are complementary to each other: the first takes on reviewing the literature of "rumor" in sciences of psychology and sociology in an attempt to construe the features of its psychological and social structure, and to employ this knowledge in understandingthe main rumor on which this whole novelis built: How does it come into existence? What are the factors that fuel it and help in spreading it around? And why has it been so strong that it drove a whole society to act against the person bywhich he was stigmatized?

The second line of inquirythat this paper engages in is exploring the narrative functions that the rumor assumes and how they contribute to weaving the texture of the novel at various levels, the characters with their constant and changing characteristics and the plot consisting of consecutive events that culminate in a knot and accelerate towards an end.

The Saudi novelist AbdoKhalwas totally awarethat the rumor – for what it enjoys of mystery and excitement elements, is capable of providing a narrative structure that is interesting, flexible, rich and more importantly sufficientto shed a bright light on the psychologies of those social actorsandthe rules of social interaction where sources of power or influence, in many occasions, escape from the center to the periphery of the society.

1- مقدمـــة -

صدرت أول طبعة من رواية ***"لوعة الغاوية"*** في عام 2012. وفي غضون عامين فقط طُبِعَ منها أربع طبعات. وقد نالت في عام 2013 جائزة الكتاب للمؤلِّف السعودي.

تحمل هذه البيانات مؤشرًا كميًّا وآخرَ نوعيًّا على أنَّالرواية حقَّقت مستوى فنيًّا متقدمًا، ولامست ذائقة الجمهور. وهو الحكم الذي يطمئنُّ إليه القارئ فور مباشرة القراءة، إذ يجد نفسه مأخوذاً بمناخات "الواقعية السحرية" التي تستثير حواسه الفنية وتستفز قناعاته النائمة، لتفتح عينيه –في نهاية الرحلة وأثناءها- على قوانين "شبه خفية" تعتمل في مجتمعاتنا بقوة وعمق فتشكِّل مصائرها بشكل عام، ومصائر أفرادها بشكل خاص. واللافت للنظر أن هذه القوانين

"النافذة" التي تنحت ملامح المجتمع وأفراده تتشكل في الزوايا المظلمة، وتستقي مفعولها من الوهم والرغبات المنبوذة.

تتوزّع أقسام الرواية بطريقتين متداخلتين: في الأولى تُعَنْون الأقسام بعبارات (الفصل الأول، الفصل الثاني، الفصل الثالث ...إلخ)، وفي الثانية تعنون الأقسام بالأرقام المجردة (1، 2، 3 ... إلخ). ويتواصل تسلسل الفصول والأرقام المجردة إلى نهاية الرواية على الرغم من تداخل أحدهما في الآخر. وقد بلغت الفصول ستة عشر فصلا، أما الأرقام فبلغت 19. تروى الفصول بلسان السارد العليم، أما الأرقام المجردة فتروى بلسان "فتون" إحدى شخصيات الرواية الرئيسة. وتتكامل الروايتان؛ فيسد أحدهما نقص الآخر؛ إذ إن "السارد العليم" ينتقي من الأحداث ما يوافق وجهة نظر مجتمع الرواية، ويفسح المجال أمام "فتون" لتستكمل بقية القصة وتزيح النقاب عن الجوانب المخفية.

تراوح لغة السرد في الرواية بين الوصف المباشر الدقيق والجملة الشعرية المعتدلة القادرة على تأثيث المكان بما ينقل روحه وعبقه الخاص للقارئ. ولكن دون أن تتورط في إعاقة نمو الحكاية. وتحضر في هذا السياق بعض المفردات اللهجية "السعودية" التي تعزّزُ هذا الإحساس في القارئ.

ولكل شخصية من شخصيات الرواية بصمة نفسية وسلوكية خاصة بها، تجعل القارئ قادرًا –في بعض المواقف- على توقُّع نوعية السلوك الذي يصدر منها. وقد كان لطرائق تقديم الشخصيات دورٌ أساسيٌّ في تكوين هذه البصمة الخاصة. فالسارد بعد أن يصف الحدث المادي، يعمد إلى إضاءة نفسيات المشاركين فيه باستعراض تأويلاتها لذلك الحدث وما ينتابها أثناءه من رغبات وأمنيات. والأحداث التي تُقَدَّمُ الشخصيات من خلالها أحداث غير مألوفة في العادة. وأهمية الحدث غير المألوف أنه أقدر على كشف دخائل النفوس وطبائعها،وأقدر على إبراز ما يعتمل فيها من عوامل القوة والضعف، والجمال والقبح، بعيدًا عن التسطيح الذي قد يفرز الناس على نحو غير مقصود إلى أخيار وأشرار.وعلى الرغم من غرابة تلك الأحداث، فإنها لا تبعد كثيرا عمَّا يصادفه الإنسان في الحياة الواقعية.

تتجرأ الرواية وتقتحم عوالم السياسة، ويتطاير فيها من هنا وهناك نقد لاذع للسياستين: الداخلية والخارجية، فالأولى تطفح بأشكال من الفساد الإداري والأخلاقي يفوق التوقعات، والثانية عجزت عن تحقيق تواصل بنَّاء مع الجيران، ولم تحسن حماية حدودها.

كثيرة هي الجوانب المثيرة في الرواية ممَّا يستدعي المقاربة النقدية، إلا أن الإشاعة من بينها جميعًا فرضت نفسها بقوة على مقاربتنا هذه؛ فقد كانت المحرّك الأساسي لسلسلة من الأحداث المفصليَّة التي رسمت مسار الرواية وتركت آثارها العميقة في بُنَى شخصياتها.

تكشف الرواية –بفنيَّة عالية- كيف أن "الإشاعة" التي هي نتاج الوهم تمتلك من قوة الفعل والتأثير في مجتمعاتنا ما لا تمتلكه الحقيقة نفسها: القريبة جدًّا لو بحثنا عنها بصدق، والبعيدة جدًّا بحكم عوامل مجتمعية عديدة تخشى نور النهار، وتحبِّذ الاختباء وراء ستائر الظلام.

ويمكننا الزعم –بكثير من الاطمئنان- إلى أن الإشاعة تحولت –في هذا العمل الروائي- من مجرد حدث ضمن سلسلة أحداث الرواية إلى بنية عامة انتظمت مختلف عناصر العمل الروائي وأثَّرت فيها وتأثَّرت بها.

في هذه الدراسة نتحرَّك في اتجاهيْن متكامليْن: يُعْنى الأول بمراجعة أدبيات الإشاعة في علميْ النفس والاجتماع، لاستخلاص خصائص بُنيَتِها السيكولوجية الاجتماعية، وتوظيفها في فهم الإشاعة الجوهرية التي تأسَّست عليها هذه الرواية: كيف نشأت؟ وما العوامل التي ساعدت على انتشارها؟ ولماذا كانت بتلك القوة التي حملت مجتمعًا بأكمله للتحرك ضد الشخصية التي ألبسَتْ ثوبَها؟

ويشتغل الاتجاه الثاني على رصد الوظائف السردية التي اضطلعت بها الإشاعة في إشادة معمار الرواية على مستويات: الشخصيات بسماتها الثابتة والمتحولة، والحبكة بما تتضمنه من سلسلة أحداث متعاقبة وعقدة وحل.

2- الإشاعة من زاوية "سيكولوجية اجتماعية":

في هذا القسم من الدراسة نراجع أدبيات الإشاعة في علميْ النفس والاجتماع، فنتطرق إلى تعريفها لغةً واصطلاحًا، وقانون انتشارها، ودوافعها، والعمليات الإدراكية المرتبطة بها.

2-1 تعريف الإشاعة لغةً واصطلاحًا:

في لغتنا المعاصرة، نستخدم كلمتيْ "إشاعة" و"شائعة" بمعنى الخبر المنتشر الباطل، أو المشكوك في صحته.

ولم تشر المعاجم القديمة إلى هذا المعنى، ولا وردت فيهاالكلمتان مستقلَّتيْن بدلالتهما التي نفهمها في عصرنا، وإنما وردتا –في الغالب- مقترنتين بلفظة "خبر"، فإشاعة الخبر: إذاعته ونشره، والخبر الشائع: هو الخبر المنتشر، وقد جاء في لسان العرب: "شاع الخبر في الناس يشيع شَيْعًا وشَيَعانًا ومَشاعًا وشَيْعُوعةً، فهو شائع: انتشر وافترق وذاع وظهر. وأشاعَه هو وأشاعَ ذِكْرَ الشيء: أطاره وأظهره. وقولهم: هذا خبر شائع، وقد شاع في الناس معناه قد اتَّصلَ بكلّ أحدٍ فاستوى علم الناس به ولم يكن علمه عند بعضهم دون بعض"[1].

وإذا كانت كلمتا "إشاعة" و"شائعة" لم تردا مستقلتين في الدلالة على الخبر المنتشر في المعاجم القديمة، فإن كلمة أخرى وردت بهذا المعنى، هي "الشاعة"، وقد ذكرها كلٌّ من ابن منظور في اللسان، والزبيدي في تاج العروس، بمعنى "الأخبار المنتشرة"، إلا أن الكلمة بهذا المعنى غير موجودة تقريبًا في مدونة الكتب التراثية، فنتائج البحث عن هذه الكلمة في موقع الوراق

[1]- ابن منظور، ***لسان العرب***،دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، المجلد الثامن، ص191.

–في غير المعجميْن المذكوريْن- لا تعطيك سوى 6 نتائج، وفي جميعها جاءت بمعنى المرأة لا بمعنى الأخبار المنتشرة.

وفي جميع الحالات، لم تحمل ألفاظ "الإشاعة" و"الشائعة" و"الشاعة" في المعاجم القديمة دلالة الخبر الباطل أو المشكوك في صحته، واقتصرت –مع اقترانها بكلمة خبر- على دلالة الذيوع والانتشار.

أما المعاجم الحديثة فقد نصَّت على المعنى المعروف للشائعة في استخدامنا المعاصر. جاء في المعجم الوسيط: "الشائعة: الخبر ينتشر ولا تثبُّت فيه"[2]، وفي معجم الغني: "إنها مجرد شائعة:خَبَرٌ لاَ أَسَاسَ لَهُ مِنَ الصِّحَّةِ ذَائِعٌ بَيْنَ النَّاسِ"[3]، وفي معجم اللغة العربية المعاصرة: "إشاعة: مصدر أشاع، خبر مكذوب غير موثوق فيه وغير مؤكّد، ينتشر بين الناس"[4].

وحملت المعاجم الاختصاصية في علم النفس والاجتماع الدلالات ذاتها تقريبًا التي أشارت إليها المعاجم اللغوية الحديثة، مع إضافة تفصيلات متعلقة بطبيعة الإشاعة ووسائل انتشارها، فقد جاء في ***موسوعة علم النفس*** لرولان دورون وفرنسواز بارو أن الإشاعة"خبر غير مراقب يبرز في غياب المعلومات الدقيقة حول حدث مهم، ويتميز نقله الشفهي بثلاثة اتجاهات:

1- الخفض: كلما انتشرت الإشاعة أصبحت مقتضبة سهلة النقل.

2- التأكيد: يجري تضخيم بعض التفاصيل بواسطة عامل التضاد.

3- الاستيعاب أو التمثُّل: تعاد بنية التفاصيل المحفوظة بشكل يملك فيه المجموع وحدة ورسوخ الشكل الحسن الذي يعكس الإيديولوجيا ورغبات ومصالح الذين ينشرون الإشاعة. للإشاعات وظيفة أساسية هي إدخال الارتياح إلى التوترات الانفعالية العدائية التي تثيرها غالبا، وذلك بتفسيرها وتبريرها"[5].

ومن وجهة نظر علم الاجتماع –كما يورد ***معجم المصطلحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية***- تُعتبر "الشائعة" أو "الإشاعة" الآلية أو الصيرورة التي تنتشر بواسطتها الأخبار، بدون أن تمر ضمن القنوات الرسمية أو المتبعة عموما لتناقلها. ويتضمن الانتشار المذكور بعض التحوير والتشويه في الخبر الأصلي، كما يمكن للإشاعة أن تصدر عن خبر كاذب جملة وتفصيلا.[6]

ويشير ***معجم المصطلحات الاجتماعية*** إلى أن الإشاعة تنتشر على أفضل وجه إذا طالت نقطة حساسة، وكانت مبهمة، وللإشاعة وظيفتان:

- وظيفة عقلية (تقديم تفسير ما لمن يهمه الأمر).

---

[2]- ***المعجم الوسيط***، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، 2004، ص503.

[3]- عبد الغني أبو العزم، ***معجم الغني***، كتاب إلكتروني، 2013، حرف الشين.

[4]- أحمد مختار عمر، ***معجم اللغة العربية المعاصرة***، عالم الكتب، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 2008، المجلد الثاني، ص1257.

[5]- رولان دورون وفرنسواز بارو، ***موسوعة علم النفس***، ترجمة فؤاد شاهين، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، المجلد الثالث، ص967.

[6]- سامي ذبيان وآخرون، ***قاموس المصطلحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية***، رياض الريّس للكتب والنشر، لندن، الطبعة الأولى، 1990، ص275.

- وظيفة وجدانية (الترويح والتفريج عن التوترات العاطفية).

وتدل الدراسات التجريبية على أن المعلومات التي تروجها الإشاعات تُشَوَّهُ من خلال حصرها في عناصر مبسطة تضاف إليها التأويلات، من هنا ومن هناك، وتكيف معها التفاصيل الثانوية. كما تولد من خلال هذه التشويهات ظواهر تماثلٍ وتكاثف بين عدد من التفاصيل. ففي الإشاعة، يخفض كل شيء إلى بنية بسيطة دالة، متوافقة مع مصالح الفرد وتجربته.[7]

في ضوء ما سبق، يمكن أن نعرّف الإشاعة بأنها: (خبر يفتقر للمصداقية ينتشر في وسط اجتماعي معين، قد يكون مختلقًا بشكل كلي، وقد يمتلك أصلاً واقعيًا جرت عليه تحويراتٌ وتشويهاتٌ –في رحلة انتقاله من شخص لآخر- أكسبته دلالات جديدة ذات أهمية بالغة غير موجودة على تلك الصورة في الحادثة الأصلية).

2-2: قانون الإشاعة:

تُعَدُّ دراسات ألبورت وبوستمان من الدراسات الرائدة في مجال الشائعات، وقد حاولا صياغة معادلة رياضية تقيس شدة انتشار الشائعة، ويمكن اعتبارها قانونًا نافذًا، وصيغتها هي:

شدة انتشار الشائعة = أهميتها × غموضها[8]

بمعنى أن قوة الإشاعة السارية تتغيَّر تبعا لمدى أهمية الموضوع عند الأشخاص المعنيين، وطبقًا لمقدار الغموض المتعلق بالمسألة التي تثيرها، والعلاقة بين الأهمية والغموض تضاعفية لا إضافية، بمعنى إذا كانت الأهمية "صفرا"، أو إذا كان الغموض "صفرا" فلن تكون هناك إشاعة[9].

وفي كتاب "***علم نفس الإشاعة***" أمثلة جيدة تبيّن طريقة عمل القانون المشار إليه، من بينها أنَّ مواطنًا أمريكيًّا لا يحتمل أن ينشر إشاعات عن سعر الجمال في سوق أفغانستان، لأن الأمر لا يهمُّه على الإطلاق، وإن كان السعر يتَّسم بالغموض، كما أنَّه غير مستعد لأن ينشر التقوُّلات عن سكان سوازيلاند، لأنهم لا يثيرون اهتمامه، فالغموض وحده لا يطلق الإشاعة ولا يسندها. وكذلك الحال بالنسبة للأهميَّة وحدها، فعلى الرغم من أن حادث سيارة أَفْقِدُ فيه ساقي هو بالنسبة إليَّ ذو أهمية فاجعة، فإني لست مع ذلك معرَّضًا لإشاعات تتعلق بمدى إصابتي لأني أعرف الوقائع، وإذا تلَقَّيْتُ "وصيَّةً" وعرفتُ المبلغ الذي تشتمل عليه، فسأكون أبعد ما أكون عن تقبُّل إشاعاتٍ تبالغُ في قيمة

---

[7]- خليل أحمد خليل، ***معجم المصطلحات الاجتماعية***، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1995م، ص48.

[8]- أحمد عبد العزيز الأصفر، **العوامل النفسية والاجتماعية لانتشار الشائعات وكيفية الوقاية من أخطارها**، ورقة عمل مقدمة إلى ندوة "مجابهة الشائعات" التي أقامتها جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية في جامعة جيبوتي خلال الفترة 12-2010/4/14، ص4.

[9]- فؤاد علام، **وسائل ترويج الشائعات ودور أجهزة الأمن في مواجهتها**، ص48. ضمن كتاب: ***الإشاعة والحرب النفسية***، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، الرياض، أبحاث الحلقة العلمية السابعة التي عقدت بمقر المركز في الفترة من 5 إلى 9 يوليو 1986م.

المبلغ. ولقد كان الضبَّاط في المراكز العليا أقلَّ انفتاحًا للإشاعات، ممَّا كان عليه المحاربون القدماء، لا لأنَّ الأحداث الواقعة كانت أقلَّ أهميَّةً بالنسبة إليهم، ولكن لأنَّهم كانوا –بصورة عامة- على دراية أعظم بالخطط والإستراتيجيَّات، فحيث لا يوجد غموض لا يمكن أن تكون إشاعة[10].

2-3: دوافع نشر الإشاعة:

عندما يقرّر علماء النفس أن الإشاعة لا تسري إلا إذا كان موضوعها ينطوي على أهمية بالنسبة إلى الفرد الذي يسمعها وينقلها، فإنهم إنما يوجّهون الانتباه إلى العوامل الذاتية للإشاعة. إن أيَّة حاجة بشرية يمكن أن تكون القوة الدافعة للإشاعة، فالاهتمام بما هو جنسي يفسِّر الكثير من التقوُّلات ومعظم الفضائح، والقلق هو القوة الدافعة إلى أقاصيص الكوارث وجثث القتلى التي كثيرًا ما نسمعُها، والآمال والرغبات تكمن وراء الإشاعات الحالمة، والحقد يسند أقاصيص الاتهام والافتراء.[11]

يسعى الإنسان كذلك إلى تفسير ما يقع حوله من أحداث تهمه بطريقة مقنعة مقبولة، وإن لم يملك المعلومات الكافية تجاه قضية معينة فإنه يلجأ إلى خياله ليستكمل ملامح صورتها ويقدم لنفسه وغيره رواية مكتملة الأركان عنها[12].

وقد ساق بعض الباحثين دوافع أخرى عديدة تقف وراء الإشاعات، لعل أهمها الآتية[13]:

1- الإسقاط: ويراد به أن يجد الفرد في الشائعات المتداولة ما يفسر مشكلة يعد مسؤولا عنها، ولكن تصديق الشائعة يرفع عنه قدرا كبيرا من المسؤولية الاجتماعية أو الأخلاقية.

2- التبرير: فإذا كانت الشائعة توصف بالغموض فإن تفسيرها يمكن أن يساعد الفرد على تبرير ما يحمله من مشاعر نحو الآخرين، لم يكن قادرا على البوح بها فيما سبق.

3-التوقُّع:وممَّا يساعد على تقبُّل الشائعات أنيتوقَّع الفرد حدوث أمرٍ ما (إيجابيّ أو سلبيّ) لأسباب عقلية ومنطقية، فإذا ما ظهرت شائعة توافق ذلك التوقُّع كان التصديق بها قويًّا.

2-4: الإشاعة وعمليَّات الإدراك:

من أبرز خصائص الشائعات أنها تتعرَّض لتحويرات كثيرة في انتقالها من شخص لآخر. ويعود ذلك إلى القنوات الإدراكية التي تمر خلالها في رحلتها الانتقالية تلك. وبحسب كتاب ***"علم نفس الإشاعة"*** فإن أيَّ إشاعةٍ

---

[10]- كامل محمد محمد عويضة، ***علم نفس الإشاعة***، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1996، ص56.

[11]- كامل محمد محمد عويضة، ***علم نفس الإشاعة***، ص58.

[12]- مهدي علي دومان، **الشائعة والأمن**، ص196. ضمن كتاب: ***أساليب مواجهة الشائعات***، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، 2001م.

[13]- أحمد عبد العزيز الأصفر، **العوامل النفسية والاجتماعية لانتشار الشائعات وكيفية الوقاية من أخطارها**، ص7.

تمرُّ –في انتقالها من شخص لآخر- بثلاث مراحل سيكولوجية هي: الإدراك والتذكُّر والإدلاء. ويستحيل على وجه الدقة عزل هذه المراحل بعضها عن بعض، فما ندركه يتأثَّر بالضرورة بما نتذكَّره من التجارب الماضية الملائمة، كما أنه يتأثَّر أحيانًا بما نرغب في الإدلاء به.والتذكُّر يعتمد على الإدراك ولكنه يعتمد أيضا على الألفاظ التي تجسِّد الموقف في الذهن. والإدلاء هو نتاج العمليتين السابقتين، ولكنه أيضا نتاج الموقف الاجتماعي الذي يتمُّفيه الإدلاء، وشكل الإدلاء يتوقَّف على ما نملكه من ألفاظ وعلى ما نستهدفه من الحديث.وكلَّما مضت هذه العملية المعقَّدة في طريقها –متقهّقرةً من الإدراك المبدئي إلى الإدلاء الختامي- يحدُثالكثيرُ من التحولات العجيبة بانصهار الانطباعات الحسية الأصلية مع الذكريات الماضية والانفعالات في سبيكة واحدة. فالنِّسيانُواللاَّ وْيُغيِّران بالضرورة كلَّ قيمِ أحداث العالم الخارجي تقريبًا. ولكن الدور الحاسم إنما تضطلع به "الاتجاهات" و"التوقُّعات". فهما اللذان يجعلان من التذكر عملية عقلية "بنائية" أكثر منها مجرد عملية "نسخية". والتصوُّر المركزي هو تصور "السعي وراء معنى". وفي سعيهم وراء معنى، يعمد الأفراد إلى التكثيف أو إلى الحشو بحيث يحققون "جشطالتًا" أفضل، و"إغلاقًا" أفضل، وصيغةً أبسطَ وأكثرَدلالةً .[14]

3- الإشاعة في رواية "لوعة الغاوية":

تحتلُّ الإشاعة موقعًا محوريًّا في رواية ***"لوعة الغاوية"***؛فعليها انبنتْ حكايتُها الأساسية، وقد كانت من العمق والسطوة بحيث حكمت أحداثها المفصلية، وتركت آثارها العميقة في بُنى شخصياتها.

وكما ذكرنا سابقا، لم تكن الإشاعة في هذه الرواية مجرَّد حدث ضمن سلسلة أحداث الرواية، وإنما ارتقت لتحكم آليَّة السرد كاملة من البدء إلى الختام، ففرضت بذلك إيقاعًا معيَّنا، وأسلوبًا خاصًّا، ترك آثاره في جميع عناصر الرواية. وبعبارة أخرى، إنها "بنية سردية".وبمقدار ما تفتح من الإمكانات، وتتيح من الطاقات، فإنها تستتبع معادلة شاقة يضطلع بها الروائي في صنعته، بحيث لا تطغى عناصر الإثارة والتشويق التي توفِّرها على قوة بناء الشخصيات، أو تماسك الأحداث، أو عمق الرسالة الفكرية التي تبطِّن العمل الروائي كملاً .

ولم تقتصر رواية ***"لوعة الغاوية"*** على إشاعة واحدة، بل ضمَّت بين جنباتها أمشاجًا من شائعات متداخلة نشأت في غالبيتها بشكل عفوي غير مقصود بالنسبة إلى مجتمع الرواية.

في هذا القسم،نستعرض أبرز إشاعتيْن تضمنتهما الرواية،مجتهدين في إعادة ترتيب عناصرهما بما يوافق تسلسلها الزمني لا تسلسل ظهورها في الرواية، ثم

[14]- ***علم نفس الإشاعة***، ص75.

نحللهما في ضوء المحكّات العلمية للإشاعة المستخلصة من علميْ النفس والاجتماع.

1-3: الإشاعة1: مبخوت مغتصب الصبايا:

على نحو ما أوضحنا في القسم 2-1، تُحكم الإشاعة بقانون الخفض، إذ تُحَوَّلُ إلىنية بسيطة دالّ ة، وكلما انتشرت أصبحت مقتضبة سهلة النقل. هكذا اختُزلت العديد من الأحداث المتداخلة المتشابكةالممتدة على فترة زمنية طويلة إلى خبر قصير فحواه أن مبخوت –بطل الرواية- يستدرج الصبايا ويغتصبهن.

سنعمل -فيما يلي من أسطر- على تجميع خيوط هذه الإشاعة والحوادث المتصلة بها من مواضع متفرقة من الرواية لنقدمها للقارئ على نحو متسلسل يكشف كيفية نشوئها والظروف النفسية والاجتماعية التي أحاطت بها وأسهمت في إشاعتها في أوساط الناس، وحملتهم على تصديقها بدرجة عالية من اليقين.

مبخوت رجل ينتمي إلى جازان (جنوب المملكة العربية السعودية)، وإلى قرية تسمى "الغاوية". هاجر تحت وطأة ظرف قاهر إلى (جدة)، واستقرَّ في أحد أحيائها. وهناك، ارتاب فيه سكان الحي وعاملوه بشيء من الجفاء لكونه غريبًا أولاً وزيديَّ المذهب ثانيًا، فاعتزل مجالسهم بالتدريج، إلا أنه ظلَّ وفيًّا لسلوك غريب وهو توزيع الهدايا على الأطفال.وكان يفرق بين الذكور والإناث في طرائق تقديم الهدايا، فالصبيان يقذف بالألعاب لهم في الهواء ليتقافزوا لالتقاطها، أما الصبايا فلهنَّ خصوصية، "فلا ينثر ألعابهن في الهواء بل يوشوش لكل واحدة بموعد لتأتيَ من أجل أخذ هديتها"[15].

هذا السلوك أثار ريبة نساء الحي، فأخذن يتداولن فيما بينهنَّ أحاديث تتهم مبخوت بعبثه بشرف الصبايا، وخشين على سمعة بناتهن من أن يلحقها أذى، فتواصين بمنع بناتهن من الاقتراب من بابه. وترسَّخت الإشاعة في أعقاب ليلة المطر، التي انسكبت فيها الأمطار بغزارة غير معهودة. في هذه الحادثة، "مبخوت كان الاسم الأكثر تداولاً على ألسنة الرجال والنساء، فقد أنقذ طفلتين وخبَّأهما في منزله إلى أن جفَّت زخات المطر... وأعادهما إلى ذويهما في حالة يرثى لها. الطفلتان هما: طاهرة عماري، وعبير مساوى. بعد هذه الحادثة أصيبت طاهرة بالخَرَس ولم تنطق بكلمة واحدة. وفي نفس الشهر غادرت عبير مع ذويها إلى مدينة حفر الباطن استجابة لطلب أبيها الذي تقدَّم به لنقل عمله إلى هناك، أو أي جهة في الكون. ولم يعرف أحد ما الذي أصاب طاهرة وتسبب بقطع أو تراخي حبالها الصوتية"[16].

حقنت هذه الحادثة الإشاعة بطاقة انتشار هائلة، فسرت في أوساط نساء الحي سريان النار في الهشيم، وساهمت جبرانة (التي تُكِنُّ كراهية شديدة لمبخوت لأنه أعرض عن إغراءاتها وكان آخر محطَّة يمكن أن ينقذها من العنوسة) بحماسٍفي ترويجها، فقد أقسمت أنها رأته أكثر من مرة يعبث بمفاتن

[15]- *نفسه*، ص88.

[16]- *نفسه*، ص20.

الصبايا الصغيرات، ويقودهن إلى داخل داره قبل زواجه، وداوم على ذلك بعد زواجه. وكانت تتجَّرأ في بعض المواقف فتسرد أسماء الصبايا اللاتي اغتصبهنَّ مبخوت.

لم تبق الإشاعة محصورة في مجتمع النساء، بل انتقلت منها إلى مجالس الرجال، وما إن وصلت إلى مسامع (جابر الأعمى) حتى نَشَطَ وجَرَتْ في أوردته خصوماتُ الأمس فحَمَلَ عصاه وخَرَجَ مُؤَلِبّا رجالات الحارة ضد مبخوت. ومع انتشار الخبر تداعت كل الحكايات التي كان يقوم بها مبخوت من أجل تعزيز يقينهم بأنه كان يصنع شراكات لبناتهم أمام أبصارهم. حتى إمام المسجد -المحكوم سابقًا بالسجن ثلاث سنوات لاعتدائه على زوجة جاره- نشط في التحريض والتأليب، ولعن في خطبة الجمعة كلَّ من يُؤوي ضالًّا أو يستر منحرفًا أو يسكت عن فاحشة بيِّنة.

بفعل حملة التأليب والتحريض الملتهبة، هبَّ الرجال هبَّة رجل واحد، فأعدُّوا العُدَّة اللازمة لإخراج مبخوت من بين ظهرانيهم إلى غير رجعة، وأقدموا على طرده من الحي بطريقة مهينة جدًّا، استخدموا فيها مختلف أصناف الفواكه الفاسدة التي صَوَّبوها على جسده وجسد زوجته، وأطلقوا في الفضاء أقذع الشتائم وعبارات السباب.

تُعَدُّ هذه الإشاعة أهم إشاعات الرواية، فقد انبنى عليها هيكلها العام، وتأثَّرت بها أهم أحداثها. ونعتذر للقارئ عن الإطالة في سردها، إلا أننا رغبنا في أن نضعه في سياقاتها الواقعية التفصيلية، ليدرك العوامل التي أدت إلى نشوئها أولا، وسريانها في أوساط أهالي الحيّ ثانيا، ورسوخها في أذهانهم ثالثًا، إلى الحد الذي جعلهم جميعًا على قلب رجل واحد، وحَطّهم على التحرُّك وفق نيَّة واحدة، وفي إطار خطَّة واحدة، للتخلُّص من الشخص الذي علقت التهمةُ بثيابه، ولطَّخت الأقاويلُ سمعته.

وقد حَرِصَ الكاتب على تفنيد الإشاعة في الفصول الأخيرة من الرواية، فمبخوت لم يتعرَّض للفتاتين بالأذى في ليلة المطر، ولا علاقة لهبما ألَمَّ بطاهرة من احتباس صوتها، وإنما اللص "أبو العينين" هو من يقف وراء ذلك، إذْ قام بسرقة الفتاتين، وهدَّدهما بقطع لسان أيٍّ منهما إنْ أخبرتا أحدًا، وكان من سوء حظ مبخوت أن صادفهما في طريقه وأنقذهما.

عَمِلَ الكاتب -كذلك- على إضاءة خلفيَّة السلوك الغريب الذي كان يداوم عليه مبخوت، وهو توزيع الهدايا على الأطفال، وهو السلوك الذي جلب له المعرَّة، وتسبَّب له في مشكلات كثيرة؛ فقد كانت تربطه بأخته التوأم (حفصة) علاقة روحية قوية وشديدة الخصوصية، وقد طلبت منه في أعقاب حادثة تأذَّى فيها طفل يتيم أن يعاهدها ألَّا يمرَّ عليهما أسبوع دون أن يقدِّما هدية لأيِّ طفل مسكين. وقد عاهدها على ما طلبت وأقسم لها على البِرّ بعهده. ثم إن حفصة تُوُفِّيَت في طلق ناري طائش في حفلة ختان مبخوت، وبقيت حيَّةً في عقله ونفسه العمر كله، وقد وفى بما عاهدها عليه، فـ "منذ تلك الحادثة التي وعد فيها حفصة بأن لا يقطع

توزيع الهدايا بتاتا ظل وفيا لذلك العهد، يفتح بابه عصرا، ويدير أشرطة الغناء، ويمنح الصِّبْيَةَ الهدايا والألعاب"[17].

ومن الجدير بالذكر أن الكاتب لم يعرض الإشاعة بالتسلسل الذي ذكرناه هنا، وإنما عمد إلى تقطيع أوصالها على نحو مكّنه من ممارسة لعبة الإشاعة على القارئ، فجعله في بداية الرواية يتوهَّم أن هذه الفكرة صحيحة، ثم قدَّم له بعض المؤشرات التي تشكِّكه فيها، ثم قدَّم له علامات تؤكِّد صحتها، ثم عاد ينثر الحقائق بتدرُّج شديد، وببخل بالغ، ليكتشف القارئ متأخِّرًا أن هذه الفكرة باطلة، وأنها لم تكن أكثر من إشاعة صدَّقها رجالات الحي ونساؤه، وتصرَّفوا بوحي منها بطريقة فيها الكثير من الإساءة والأذى النفسي والجسدي.

2-3: تحليل الإشاعة (1) من منظور سيكولوجي اجتماعي:

يفيدنا قانون الإشاعة الذي شرحناه في القسم (2-2) أن أيَّ إشاعة لا يمكن لها أن تنشأ ما لم يتوفَّر فيها شرطان أساسيان هما: الأهمية والغموض. والعلاقة بين هذين الشرطين تضاعفية لا إضافية، بمعنى أن انتفاء أحدهما يعني انتفاء الإشاعة نفسها، أما قوة انتشارها –في حالة توافرهما- فتتوقَّف على قوة كل منهما.

في الإشاعة رقم (1) تحقَّق هذان العاملان بقوَّة. فالقضيَّة الأساسيَّة هي الخطر الذي يتهدَّد عذريَّة الصبايا. وهي مسألة مهمَّة في المجتمعات الإنسانية قاطبة بله الإسلامية العربية. لأنها تندرج في جرائم الاعتداء الجنسي على الأطفال. وإذْ كانت الأسر تحرص على حماية أطفالها من مختلف أشكال الاستغلال الجنسي -إما من باب الحفاظ على حقوقها في طفولة سويَّة، وإما انطلاقًا من مفاهيم الشرف الشرقية- فقد تفاعلت مع الأخبار المتداولة عن هذا الموضوع بقوة. ويمكننا أن نتصور أهمية الموضوع بالنسبة لأهالي الحي من خلال ردة فعل أبكر سالم عندما سكبت زوجته على مسامعه الأقاويل التي تتداولها النساء عن مبخوت وعبثه بالصبايا، فقد "اشتعل غضبه وهو ينظر إلى صغيراته القابعات أمام شاشة التلفاز، مريقًا على رأسه زجاجة ماء بارد لشعوره بدوار مفاجئ داهمه"[18].

أما الغموض فقد كان على أشُدِّه، فمبخوت رجل غريب لم يرتح له أهالي الحي، ودفعوه بجفائهم إلى اعتزالهم ومجانبة مجالسهم، وهو ما أحاطه بهالة كثيفة من الغموض، وجعل الحكم على مدى صحة الأخبار المتعلقة به صعبًا. وتزداد درجة الغموض عندما يتعلق الخبر المتداول بسلوك لا يتاح للآخرين رؤيته عيانًا، كحوادث الاستغلال الجنسي التي لا تقع في الأماكن المكشوفة عادة فضلاً عن حساسية الموضوع للأسر العربية التي تتكتَّم –غالبًا- على أيّ اعتداءات قد تلحق بأطفالها.

ولما كانت الأهمية كبيرة جدًّا والغموض كثيفًا جدًّا، بالنظر للعوامل التي سقناها آنفًا، انتشرت الإشاعة في أوساط الأهالي انتشار النار في الهشيم، وكانت

[17]- عبده خال، ***لوعة الغاوية***، دار الساقي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 2013، ص243.
[18]- ***لوعة الغاوية***، ص23.

من القوة بحيث قادت حملةً جماعيةً عنيفةً ارتفع فيها صوت الانفعال والطيشوخفت فيها صوت العقل والتبصُّر.

وإذا تجاوزنا شرطيْ الإشاعة الأساسيَّيْن: الأهمية والغموض، وانتقلنا إلى دوافع المشتركين في ترويجها، وجدناها تعود إلى عوامل أبرزها: الخوف، والحقد، والإسقاط.

أما الخوف فقد كان الدافع الرئيس الذي حرَّك غالبية الجماهير، ويمثِّله خير تمثيل أبكر سالم الذي جزع على براءة صغيراته الثلاث من أن يغتالها وحش بشري يتصيد الصبايا وينصب الأشراك لاقتناصهن. وأما الحقد فقد كان دافع البعض باتجاه تصفية حسابات قديمة مع مبخوت. ويمثِّله كلٌّ من جبرانة التي طمعت أن يتزوجها مبخوت وتألمت عندما أعرض عنها فحملت عليه حقدًا عظيمًا بين جوانحها، والأعمى جابر الذي تشاجر مع مبخوت لأنه لم يزوّده بالمجلات الإباحية التي دار في خلده أنه يجلبها لبعض رجال الحي، فغضب منه هذا الأخير وفضحه على رؤوس الأشهاد، ليزرع في نفس خصمه بذرة كراهية تنامت مع الوقت حتى غدت شجرة عظيمة. وأما الإسقاط فنلمسه في سلوك إمام المسجد الذي سبق أن حوكم في قضية شرف وسجن ثلاث سنوات، لأنه وجد في تصديق الشائعة ونشرها والتحريض على المتورط فيها ما يرفع عنه جزءًا من الشعور بالذنب تجاه نشر الرذيلة في المجتمع، وهي الآفة التي شارك فيها عندما خان جاره في زوجته.

أما على المستوى الإدراكي المتصل بعمليات الإدراك والتذكر والإدلاء، وهي العمليات الأساسية في تلقي الإشاعة ونشرها، فيمكن أن نلفت النظر إلى الكيفيات التي يتم بها تأويل الأحداث وإعادة صياغتها بطريقة جديدة فيها إضافة من جانب، وحذف واختصار من جانب آخر؛ فجبرانة وغيرها ممن رأيْن مبخوتًا يلاطف الصبايا أكثر من مرة، فسَّرن تلك الوقائع على أنها تحرُّش جنسي، وتوقَّعن أنَّ اعتداءً فعليًّا سوف يتبعها، لاسيَّما عندما يختلي بهن في منزله.وعندما انطلقت فكرة اعتدائه على الصبايا من مصدر مجهول، تلقفنها بحماس، ووجدن الجرأة الكافية لتأكيدها، بل بلغت الجرأة بجبرانة إلى حد سرد أسماء الصبايا اللواتي وقعن فريسة رغباته المريضة. وعلى النحو نفسه تم تأويل حادثة المطر، فعجز طاهرة عن الكلام، وانتقال أهل عبير إلى مدينة أخرى، إنما سببه اعتداء جنسي أقدم عليه الشخص الذي خبَّأ الفتاتين في منزله حتى توقف المطر وأعادهما في هيئة مزرية يرثى لها. ولم تجد النساء حرجًا في الترويج لهذا الاستنتاج الخاطئ، فقد كان -في تلك اللحظة، وعند ربطه بالأقاويل السابقة- مقنعًا بما يكفي، على الرغم من أن واحدة منهن لم تر عيانًا ما يثبت تلك التهمة.

إن اتهام مبخوت باستدراج الصبايا والاعتداء عليهنَّ مثَّل إطارا عامًّا أو جشطالتًا كليًّا أعيد في ضوئه تفسير معظم الحوادث المتصلة به، وبعد أن كانت متفرقة لا رابط يجمعها، انتظمت في بنية جديدة خَلَعَتْ عليها المعنى المفقود سابقًا، وسمحت للرغبات النفسية الكامنة أن تعلن عن نفسها، فأصبح الخوف ذا

معنى وليس مجرد قلق فائض، وأصبح الحقد ذا معنى وليس مجرد شعور شخصي بغيض، وأصبح الإسقاط ذا معنى وليس مجرد تهرب من المسؤولية بإلقائها على الآخرين.

عندما نستعرض نشأة هذه الإشاعة، وتطورها، والغايات التي بلغتها، في ضوء المحكّات العلمية المستخلصة من علميْ النفس والاجتماع، ندرك عمق الصناعة الروائية عند عبده خال، فقد وَعَى شروط الإشاعة الموضوعية، وعرف السياقات النفسية والاجتماعية التي تتطلّ بها، فزرعها في تربة الرواية بطريقة حاذقة، وحشد من التفاصيل القولة والفعلية ما يكفل لها أن تضرب بجذورها عميقًا، وتَمُدَّ ساقها وأغصانها وفروعها عاليًا، في اتجاهات مختلفة، لتظلِّل عالم الرواية كاملاً .

ليس ذلك فحسب، بل يمكن الزعم أن تحليل الإشاعة -كما وردت في "لوعة الغاوية"- يضيء عددا من عوامل نشأتها وتطورها لم تلتفت له أدبياتها في علم النفس.من ذلك مثلاً **غرابة الحادثة الأولى التي تقدح شرارة الإشاعة**. إن توزيع الهدايا بشكل منتظم على أطفال الحي، سلوك غير مألوف، ومن الطبيعي أن يثير الريب في نواياه، فإذا انضاف إليه أن الصبايا ينلن هداياهن بطريقة مختلفة، تستدعي مقدم كل واحدة منهن منفردة، تأكّد ذلك الريب، ودَفَعَ الألسن إلى تناوله بالاستهجان أولاً، ثم التّقَوُّل والتّزَيُّد ثانيًا. إن الأفعال الغريبة، والتصرفات غير المألوفة، أكثر قابلية لإطلاق الشائعات، من غيرها من الأفعال والتصرفات المألوفة.ذلك أنها تلفت الأنظار أولاً ، وتدفع العقول إلى محاولة الفهم ثانيًا، ثم أخيرًا تطلق الألسنة في صاحبها إما بالمدح أو بالقدح.

كذلك تلعب **الصدفة العمياء** دورًا كبيرًا غير متوقّع في تثبيت دعائم بعض الإشاعات، كما حدث مع مبخوت، فالظروف التي قادته ليلتقيَ بالطفلتين، وحملته على حفظهما في بيته إلى حين انتهاء المطر، وما رافقها من انحباس لسان طاهرة، وسفر أسرة عبير بعد ذلك، هذه الظروف لا تعدو أن تكون صُدَفًا عمياء وافقت أجواء الإشاعة التي كانت قد انطلقت في الخفاء، وبدأت تسري في أوساط النساء، فاحتلت موقعا ممتازًا ضمن الإطارالإدراكي الذي أسَّسته، وجاءت بمثابة الدليل المنتظر الذي يقطع الشك باليقين. إن الصدف الاجتماعية في تراكمها، وانبناء بعضها على بعض، قد تخلق قصة شديدة الانسجام والترابط على نحو غير متوقع، وفقًا لما يحيط بها من عوامل الاصطفاء التي تستبقي جوانب من تلك الحوادث دون أخرى، وتحذف أخرى أو تحوّرها إما قليلاً أو كثيرًا. وفي سياق مقارنة هذه الظاهرة بغيرها لا أجد أشبه بها من ظاهرة التطور الأحيائي التي تصنع من مجموعة من الطفرات العشوائية – بمرور الحقب الزمنية الطويلة- أنظمة حية في غاية التعقيد، وفقًا لما تمليه عوامل الانتخاب الطبيعي.

3-3: الإشاعة (2): فتون ضحية من ضحايا مبخوت:

فتون إحدى صبايا الحي اللواتي تعودن على زيارة مبخوت بانتظام وأخذ هداياهنمنه، وقد تعلّقت به، وأحبته حبًّا عنيفًا، وفي اليوم الذي طُ ردَ فيه كانت

قد دخلت داره لتستشيره في أمر أهمَّها كثيرًا وهو جريان دم بين فخذيها (وهو على ما يبدو دم الحيض فقد أوكت البنت البلوغ سريعًا كما ذُكِرَ في موضع من الرواية)، إلا أنها فوجئت بحالة الهياج العارم التي كانت تجتاح الحارة ورافقت حملة طرد مبخوت، ومن هول المشهد تبعت الحشود وهي تبكي دون أن ينتبه أحد لوجودها. عادت إلى المنزل في حالة يرثى لها، فارتابت الأم فيها فكشفت عن فخذيْها وإذا بها تلامس خيط الدم الجاري، وبسبب القناعة العارمة أن مبخوتًا يغتصب الصبايا، ولأن فتونَ كانت في منزل مبخوت قبل طرده، اقتنعت الأم بطريقة لا تدع مجلاً للشك أن مبخوتًا اغتصب الفتاة. وفي سعيها إلى دفن الفضيحة، زوَّجت ابنتها من جابر الأعمى، ولم تستجب لاقتراح أبيها أن يتم الكشف على عذريتها، فقد كانت قناعتها راسخة لا تتزعزع. تعجبت نساء الحارة من هذا الزواج غير المتكافئ، وعندما كبرت فتون وبدأت مشوارها في البحث عن مبخوت، وجدت النساء تفسير ذلك الزواج الغريب، وهو أن فتون كانت إحدى ضحايا مبخوت.

في وسعنا أن نَعُدَّ هذه الإشاعة فرعًا من الإشاعة الأصلية التي ناقشناها في القسمين (3-1) و(3-3). وكما عملت الإشاعة الأصلية على رسم ملامح حياة مبخوت، ومثَّلت منعطفًا حادًّا في مسار حياته، أطفأت الإشاعة الفرعية مستقبل فتون في فترة مبكرة من حياتها، إذ قضت عليها بالاقتران بكهل أعمى بغيض الطباع والتصرفات، وهو ما دفعها إلى سلوك مسالك غير مستقيمة لتحقيق بعض الأهداف التي وجدت فيها تعويضًا جزئيًّا عن حياة النكد والحرمان التي حاصرتها في منزل الكهل الأعمى.

3-4: تحليل الإشاعة (2) من منظور سيكولوجي اجتماعي:

لقد كانت هذه الإشاعة في البداية قناعة خاطئة، أو تصوُّرًا باطلًا، ولم تتحوَّل إلى إشاعة إلا في فترة متأخرة عندما بدأت تسري في أوساط نساء الحي بسبب مجاهرة فتون ببحثها عن مبخوت.

وأيًّا يكن، فقد توافر فيها –سواء في بداياتها أو في مراحلها المتأخرة- عاملا: الأهمية والغموض. وهما لا يختلفان في مضمونهما عمَّا كانا عليه في الإشاعة الأصلية. فالشرف يمثل الأهمية، والخوف من الفضيحة الذي يقمع رغبات التحقُّق من الموضوع يمثِّل الغموض.

يُضاف إلى ما سبق، عامل الصدفة العمياء التي جلبت فتون إلى منزل مبخوت وهي تعاني من مظاهر الحيض (على ما يبدو)، ثم قادتها إلى أمها في حالة يرثى لها وخيط الدم ينساب بين رجليها، لتقدِّم إيحاءاتٍ قويَّةً للأم بأن الفتاة تعرضت للاغتصاب، وأنها فقدت بكارتها. وفي ذلك السياق المشحون بالشكوك، بل بالقناعات الزائفة، تطورت تلك الإيحاءات في ذهن الأم لتكون دلائل قاطعة أن الفتاة كانت ضحية من ضحايا مبخوت.

تتداخل إشاعات الرواية ليعزّز بعضُها بعضًا، ويقدِّم بعضُها الدليل على صحة البعض الآخر، مما يجعل منها مجتمعةً - شبكة من المعلومات غير الدقيقة التي تأسر عقل من يتعرَّض لها، وتحدُّ من قدرته على التفكير الناقد،

فينساق وراءها مصدِّقًا، ومروّجًا،وفاعلاً بوحيٍ من مضامينها. وقد أحكم عبده خال صناعة شبكة الإشاعات في روايته، وأخضعها للقوانين ذاتها التي تتكشف عنها الإشاعات في العالم الواقعي، ولكنه لم يعرضها وفقًا لتسلسل زمني يجعلها مكشوفة أمام القارئ، واختار أن يقطّعها إلى وحدات صغيرة نَثَرَها في النص الروائي بطريقة فنية تحفظ له جاذبيته وسحره.

في القسم القادم من الدراسة، نسلط الضوء على الوظائف السردية التي نهضت بها الإشاعة وطرائق تقديمها في هذه الرواية.

4- الوظائف السردية للإشاعة في رواية (*لوعة الغاوية*):

كما بيَّنا آنفًا، عمل عبده خال –بصبر وأناة- على صناعة شبكة واسعةٍ من الإشاعات المتداخلة، الغنيَّة بتفاصيلها الاجتماعية والنفسية، والمؤثِّرة في مسار الأحداث ونمو الشخصيات. ثم إنه مزَّق أوصالها، ونثرها على امتداد الرواية بطريقة فنية آسرة، سعيًا إلى تحقيق عدد من الغايات الفنية. وعلى امتداد الرواية التي تجاوزت صفحاتها الأربعمائة صفحة، نهضت الإشاعة بعدد من الوظائف السردية المهمة.

4-1: بناء حبكة قصصية مرنة مثيرة:

مثلت الإشاعتان اللتان تعرَّضْنا لهما بالتفصيل في القسم السابق جوهر الحكاية في رواية "***لوعة الغاوية***"، وقد كانتا من الأهمية بحيث تركتا آثارهما الحاسمة على حبكتها وشخصياتها. وبناء العمل القصصي على "إشاعة" يمنح الكاتب مرونة كبيرة في رسم مسار تطُّور الأحداث، فكلُّ ما زرعه من أحداث، ونصبه من وقائع، ممَّا قد يضيّق عليه آفاق النهاية التي ينشدها، يمكنه أن يعود إليه لينزع منه يشاء، ويستبقي ما يشاء، تحت لافتة "الإشاعة" التي تتيح إطارًا جديدًا لتوزيع الأحداث وترتيب مواقعها، وهو ما يفتح أفقًا جديدًا للسرد محمَّلًا بطاقاتٍ جديدة.حتى طبائعُ الشخصيات، والأحكامُ الاجتماعيةُ عليها -ممَّا أوحى بها الكاتب لقرائه-يمكنه أن يعود إليها ليشكِّها من جديد في ضوء معطيات جديدة تزيح النقاب عن حقيقة الإشاعة التي كانت مجهولة.

بفضل الإشاعة، اكتسبت حبكة الرواية مرونة كبيرة، لعب الكاتب في ميدانها بمقدار غير يسير من الحرية، وبمهارة عالية، مكَّنته من الاحتفاظ بحبل الإثارة والتشويق موصولاً حتى خط النهاية، وأتاحت له في الوقت نفسه تقديم المجتمع الشرقي بعيوبه القائمة على الجهل، والتسرُّع،والانسياق وراء القيل والقال، والإعراض عن أساليب التثبُّت تحت وطأة مشاعر الخوف من الفضيحة والعار، وهو ما يؤدِّي –في أحيان كثيرة- إلى قرارات كارثية.

ولقد ساهم في تحقيق درجة عالية جدًّا من التشويق الطريقةُ التي اعتمدها الكاتب في استعراض الوقائع المتصلة بالإشاعة، والتي مكَّنته من نصب فخاخه والإيقاع بالقارئ في مواضع متعددة من الرواية، باستخدام عدد من الإيحاءات التي تعمَّد إطلاقها بين فترة وأخرى، لا لشيء سوى الاحتفاظ بحيوية السرد وجاذبيته وسحره.

وبعبارة موجزة، نقول إن الكاتب مارس على القارئ لعبة الإشاعة، فدفعه إلى الانسياق وراء الأقوال التي تطلقها الألسنة هنا وهناك، وتصديق ما تعلنه من اتهامات، قبل أن يعود بشكل تدريجي لتبديد سحب التصورات الخاطئة والاستنتاجات المتسرعة.

ولتوضيح ما سبق، أعيد –بشكل موجز- سرد الأحداث المتصلة بالإشاعة، بالتسلسل الذي اعتمده الروائي، وبالتتابع الذي ظهرت عليه في صفحات الرواية، مع تسليط الضوء على أثرها في طريقة تلقِّي القارئ للأحداث.

في الصفحات الأولى من الرواية يسرد الكاتب قصة ليلة المطر التي أنقذ فيها مبخوت فتاتين وخبأهما في بيته حتى انتهاء المطر، ثم أعادهما في هيئة رثة، وما تبع ذلك من عجز إحداهما عن الكلام، وسفر أهل الثانية بعد الحادثة مباشرة. وهو ما يوحي الكاتب للقارئ أن مبخوتًا اعتدى على الفتاتين أو تحرَّش بهما على أقل تقدير. ثم ينتقل إلى سرد ما تبع ذلك من أحداث تضمنت تداول الشائعة بقوة في أوساط المجتمع وانتهت بطرد مبخوت وزوجته من الحارة بطريقة مهينة جدًّا. في هذه اللحظة الحرجة يروي الكاتب قصة خروج الفتاة "فتون" باكية مذعورة من بيت مبخوت -دون أن ينتبه لها أحد- وخيط دم ينساب بين فخذيها. وهو ما يدفع القارئ إلى الاقتناع بما لايدع مجالاً للشك أنَّ مبخوتًا فعلاً اعتدى على الفتاة وأن أقاويل الناس صحيحة. يعود الكاتب بعد ذلك ليضيء ماضي مبخوت ويتحدث عن علاقة روحية خاصة جدًّا تربطه بأخته المتوفاة "حفصة"، وهي العلاقة التي أثارت قلق الأم وخوفها، مما يوحي للقارئ أن علاقةً غيرَ طبيعية (وربما تكون مُحَرَّمة) بين الأخ وأخته. مع توالي الفصول يستمر الإيحاء بشذوذ تصرفات مبخوت، ونصبه الحبائل لاصطياد الفتيات، ويستمر الإيحاء بأن مبخوتًا اعتدى فعلا على فتون في نفس يوم الطرد. وبعد سلسلة الإيحاءات القوية يعود الكاتب ليروي على لسانفتون كيف أنها في ليلة طرد مبخوت رأت دمًا يخرج من بين فخذيْها وجزعت من إخبار أمها وقرَّرت استشارته قبل أن تفاجأ بطرده بتلك الطريقة المهينة. هذه الحقائق الجديدة تسهم في تراجع الإيحاءات القوية السابقة لصالح رواية جديدة للأحداث، فالدم الذي كان بين فخذي الفتاة وهي تخرج من بيت مبخوت ليس بسبب اعتدائه عليها، وإنما هو دم الحيض "على الأرجح".يعود السارد إلى الماضي، ويضيء قصة الطفل "بشير" التي كانت السبب في طلب حفصة من أخيها مبخوت أن يتعهَّد بتوزيع الهدايا على الأطفال أسبوعيًّا مدى الحياة. وهنا يتكشَّف السبب وراء السلوك الغريب الذي حرص مبخوت عليه سنوات طويلة وجلب له المعرَّة، ويتضح أنَّ وراءه نوايا طيبة، وروحًا مخلصة لذكرى حبيب غادر الحياة في زهرة صباه. وفي مراحل متأخرة من الرواية تتحدث فتون عن الإشاعات الباطلة التي لاحقت مبخوتًا وانكشف بطلانها لاحقًا: مثل إشاعة دفنه ضحاياه من الفتيات في منزله، وإشاعة اعتدائه على الطفلتين في يوم المطر، وحقيقة أمرهما من أنهما تعرَّضتا للسرقة والتهديد بقطع لسانيهما من اللص

"أبي العينين". وهنا يبلغ القارئ شاطئ اليقين أنَّ كل ما أذيع عن مبخوت باطل، وأن أحدًا –باستثناء فتون- لم يكن يدرك نواياه الطيبة وروحه الخيِّرة.

نعتذر للقارئ مرة أخرى عن الإطالة في إعادة سرد الإشاعة وفقًا لطريقة ظهور حوادثها على صفحات الرواية، ولكننا نهدف إلى وضعه في قلب الإستراتيجية التي اتبعها الكاتب في ممارسته لعبة الإشاعة على القارئ، فالأخير يتقلَّب بين شكوك واتهامات وحقائق منقوصة، ولا يكاد يبني تصوَّرًا عنها حتى ينقضه ليبني آخر، ويستمر هكذا في جدل مستمر حتى نهاية الرواية. هذه الطريقة في العرض حفظت للسرد حيويته، وحقنته بطاقات الجذب والتشويق، فضلاً عن تحفيز التفكير والتلاعب بالمشاعر وهو ما سوف نتطرق إليه في الجزئية القادمة.

وقد يرى البعض أن هذه الطريقة في السرد، القائمة على تقطيع الحوادث، وتوزيعها في الرواية بخلاف تسلسلها الزمني، ترد في أعمال قصصية كثيرة لا تنبني على الإشاعات، وأنها هي التي تقف وراء حيوية هذه الرواية لا الإشاعة نفسها كما نرى. ونجيب على هذا الاعتراض بأن طريقة العرض القائمة على التقطيع جاءت مطابقة تمامًا لآلية انتشار الإشاعات وتفنيدها، فحتى منتصف الرواية تقريبًا كان الكاتب يعمل على ترسيخ فكرة اعتداء مبخوت على الفتيات الصغيرات، ثم بعد ذلك عمل على نثر حقائق جديدة تسهم في نقض الفكرة السابقة وغرس بذور فكرة جديدة تشكَّلت على نحو بطيء وتمثلت في رسم ملامح شخصية شديدة الوفاء للماضي، سخية بمشاعرها، وكريمة بمالها، ولا تتورَّع عن تعريض نفسها للتصوُّرات الباطلة في سبيل وفائها، ودون أن تسبِّب الأذى لأحدٍ بطبيعة الحال. ليست العبرة -إذن-بطريقة التقطيع نفسها، وإنما بالمسار الذي سلكه هذا التقطيع، والقائم على ثلاث مراحل: الإيهام، ثم التشكيك، ثم التصحيح، وهو نفسه مسار انتشار الشائعات وتفنيدها. ولقد ارتقى هذا المسار ليكون مبدأ سرديا وجَّه عملية نسج الرواية في معظم مواضعها، فالكاتب يوهمك بشيء ثم يشكِّك فيه ثم يعود ليصحِّح فهمك له، ليس فقط في قصة اعتداء مبخوت على الصبايا بشكل عام، وإنما أيضا في علاقته بـ"فتون"، وفي علاقته بأخته "حفصة"، وفي علاقته بحبيبته السابقة "أنس"، وبسبب هذه النزعة السردية تكاثرت الشائعات في الرواية، وأخذ بعضها بعضد البعض الآخر، وكوَّنت شبكة مترابطة من التصورات المغلوطة التي أخضعت القارئ لإيحاءاتها وتلاعبت بمشاعره وفقًا للخطة التي رسمها كاتب الرواية.

ومما يدلُّك أن الإشاعة في هذه الرواية تجاوزت كونها حدثاً إلى كونها بنيةً سرديةً عامةً ، أو مبدأً سرديًّا عامًّا، طرائقُ السرد المتبعة. فعلى نحو ما أشرنا في المقدمة، تتورَّع أقسام الرواية بطريقتين متداخلتين: في الأولى تُعَنْون الأقسام بعبارات (الفصل الأول، الفصل الثاني، الفصل الثالث ...إلخ)، وفي الثانية تعنون الأقسام بالأرقام المجردة (1، 2، 3 ... إلخ). ويتواصل تسلسل الفصول والأرقام المجردة إلى نهاية الرواية على الرغم من تداخل أحدهما في الآخر. وقد بلغت الفصول ستة عشر فصلاً، أما الأرقام فبلغت 19. تروى

الفصول بلسان "السارد العليم"، باستخدام "ضمير الغائب"، أما الأرقام المجردة فتُروى على لسان "فتون" إحدى شخصيات الرواية الرئيسة باستخدام "ضمير المتكلم". وتتكامل الروايتان؛ فيسُدُّ أحدُهما نقص الآخر؛ إذ إن "السارد العليم" ينتقي من الأحداث ما يُوافق وجهة نظر مجتمع الرواية، ويفسح المجال أمام "فتون" لتستكمل بقيَّة القصة وتزيح النقاب عن الجوانب المخفيَّة. وهذه الآلية القائمة على الحجب والكشف ليست سوى أثر من آثار لعبة الإشاعة التي مارسها الكاتب على قارئه، وهو ما يصبُّ في قناة أن الإشاعة هنا تحولت إلى شيء أكبر من مجرد حدث، إنها بنية سردية أو مبدأ سردي.

2-4: بناء الشخصيات:

تتَّصف شخصية "مبخوت" بطل الرواية بقدر كبير من الغرابة، على نحو يجعلها أقرب إلى الشخصية الخرافية التي لا نجد لها نظيرًا في الواقع. وقد لا يتَّضح ذلك لقارئ الرواية العابر الذي لا يُعْنى كثيرا بتجميع خيوطها من البدء إلى النهاية، ولكنها تنجلي –وإنْ بشكل مراوغ جدًّا- أمام الباحث الذي يحاول أن يلملم ملامحها السيكولوجية من مواضع مختلفة من الرواية. فمبخوت الذي يتودَّد إلى الفتيات الصغيرات بطريقة مستهجنة جدًّا، ويتحسَّسُ شعورهن ويتشمَّمُ أعناقهن بما يوحي بضربٍ من التحرش الجنسي، مبخوت هذا لا يعاني أي شذوذ في ميولاته الجنسية، ويتَّضح –بمرور أحداث الرواية وإضاءة ماضي علاقته الروحية بأخته- أنه إنما يستعيد ذكريات تلك الأخت العزيزة التي فقدت حياتها في طلق ناري طائش وعجز عن نسيانها. وبانقشاع صورة مبخوت "المهووس جنسيًّا بالأطفال"، تظهر صورة أخرى غريبة وهي صورة الأخ الذي يرتبط بأخته ارتباطًا روحيًّا عميقًا جدًّا يجعلهما لا يطيقان الافتراق عن بعضهما مطلقًا، ويمتلكان أيضا قدرة روحية تُمكِّنهما من تبادل الخواطر عن بعد، فيعرف كل منهما ما يحيق بصاحبه من سوء أو خير.

في تقديري، إن خضوع الرواية لبنية الإشاعة أسهم في بناء شخصية مبخوت على هذا النحو الذي يبدو ممعنًا في الغرابة؛ فسلوك التحرُّش بالأطفال كان محوريًّا في الإشاعة الأولى، وتَقْضُ هذه الإشاعة اقتضى إخراج هذا السلوك من خانة التحرش إلى خانة التقرُّب المبالغ فيه من الأطفال، وبقدر ما فتح هذا التحوير أفق السرد أمام الكاتب، فإنه اضطره إلى تسويغه بطريقة مقنعة، وهو ما قاد الكاتب في تقديرنا إلى فكرة العلاقة الروحية شديدة الخصوصية بينه وبين أخته. وهكذا تكوَّنت في الختام شخصية غريبة الأطوار رغم طيبتها ووفائها.

قد يرى البعض أننا نخوض في التكهُّنات عندما نقترح هذا السيناريو في نموّ الرواية، وبغض النظر عن مدى صحة المقترح الذي نقدِّمه في تشكُّل شخصية مبخوت، فما نودُّ لفتَ الأنظار إليه أن البنية التي يختارها الكاتب –أيُّ كاتبٍ- في سرد أحداث الرواية تسهم بشكل أو بآخر في تشكيل شخصياتها، فليست الرواية عملاً يتُّم إنجازه في ذهن كاتبه بشكل كامل قبل نقله إلى الورق، وإنما هي عمل يتشكَّل على نحو تدريجي أثناء عملية الكتابة نفسها، وكثيرًا ما تنتهي

بطريقة مختلفة تمامًا عن التصوُّرات المبدئية التي كان الكاتب يضعها لها. والعلاقة في تقديرنا طردية بين تعقيد الرواية ومدى تطورها أثناء عملية الكتابة نفسها، فالروايات المعقَّدة تتَّخذ ملامحها الرئيسة وخصائصها الفارقة أثناء عملية الكتابة نفسها لا قبلها.

من زاوية أخرى،وإذا نظرنا إلى الإشاعة باعتبارها حدثًا لا بنية، نلحظ أن الشخصيات الرئيسة في الرواية تأثرت –بشكل كبير- بمفعول الإشاعة، فقد قضت على مبخوت –أول المتورطين فيها-بالعزلة المطلقة، وذلك عندما طُردَ من جدة، ثم عندما تَجَنَّبَه حتَّى جيرانُه في قريته بعد أن ساهمت زوجته "مؤنسة" في ترويج الإشاعة، وهو ما دفعه إلى إحياء الماضي بشخوصه وعلاقاته، وحمله على استئناف مشوار البحث عن حبيبة الصبا "أنس". ذلك المشوار الخطر الذي كلفه الكثير على المستوى النفسي والجسدي وضاعف أمراضه وأفضى به في النهاية إلى الموت.

كذلك مهرت تلك الإشاعة حياة فتون، وشكَّلت شخصيتها، فالمستنقع القذر الذي رمتها فيه أمها قضى عليها أن تخوض طرقا ملتوية كثيرة لتستعيد شيئا من حقها في الحياة الكريمة، فتعلمت فنون الإغراء، واحترفت التكسب بجمالها، بالإيحاءات لا الأفعال نفسها. وكان من ثمرات هذه المسالك الملتوية حصولها على شهادة البكالوريوس والماجستير دون أن تكون مستحقة لهما، وحصولها على وظيفة ممتازة في أحد المستشفيات دون أن تكون جديرة بها. لقد اكتشفت فتون مظاهر الفساد في بلدها، وبدلا من أن تسعى إلى مواجهتها، فقد ركبت موجتها، وانخرطت في تيارها، ومارستها باندفاع، وأبقت في قاع نفسها على شيء من إنسانيتها ونقائها احتفظت به لحبيبها مبخوت الذي أفنت عمرها تبحث عنه.

لم يكن بطلا الرواية "مبخوت" و"فتون" قويَّيْن بما يكفي ليواجها الظروف الصعبة التي وجدا فيها، فانسحبا إلى الماضي يستقيان منه قيمة حياتيْهما، ويحاولان عابثيْن إرجاع رموزه وعلاقاته إلى الحاضر. وفي رحلتهما المعاكسة للزمن، لم يقاوما قوى المجتمع السلبية، بل ركبا عليها ليحققا هدفيهما، فالتحق مبخوت بالمتسللين وتجار السلاح في مشوار بحثه عن "أنس"، والتحقت فتون بصديقتها "هناء ميسر" التي علمتها كيف تصعد إلى أهدافها على أكتاف الفاسدين من النافذين والمسؤولين الإداريين. وكأنَّ الزمن لا يمهل المخطئين طويلاً، فها هو مبخوت يتورط -دون علم منه- في إطفاء زهرة شباب حبيبته "أنس"، بقتل ابنها "إسماعيل"، وهاهي فتون تتورط في قتل مبخوت نفسه، عندما سعت إلى إخراج القروي الجنوبي ذي الحالة الصحية الحرجة من غرفة العناية المركزة لأجل إدخال عائشة أخت زوجها التي لم تكن حالتها الصحية تستدعي ذلك. ولم يكن ذلك القروي الجنوبي المسكين سوى مبخوت الذي تعمقت جراحه بسبب الإهمال في المستشفى، فاستسلم للمرض وأسلم روحه إلى بارئها.

3-4: نقد المجتمع:

لن أطيل في هذه النقطة، ففي كل ما عرضناه سابقًا ما يكشف طبيعة المجتمعات العربية التي يمثِّل المجتمع السعودي جزءًا أصيلاً فيها.

كانت مجتمعاتنا -ومازالت، وسوف تستمر في المدى المنظور- مجتمعات القيل والقال، التي تتأذَّر بالأقوال المرسلة على عواهنها، والتهم المرميَّة بلا أدلة. وإذا كان تأذُّر المجتمعات بالإشاعة قسمة مشتركة بين جميع شعوب الأرض، فإنه لا ينبغي إغفال تفاوتها في هذا الشأن، فالمجتمعات التي يعاني أفرادها من أوقات فراغ طويلة، وترتفع فيها معدلات الأمية -سواء كانت أمية القراءة والكتابة أو أمية الثقافة-، تكون أكثر انسياقا وراء الإشاعات. أضف إلى ذلك أن مفاهيم الشرف وما تفرضه من تكتم شديد على أفراد المجتمع تزيد من درجة انتشار الإشاعة وفاعلية تأثيرها. وإذا استحضرنا هنا ما قامت به أم فتون عندما صُدِمَتْ بآثار الدم على ملابس وجسد ابنتها، وعندما رفضت مقترح زوجها بالكشف على عذرية البنت، وعندما سارعت إلى دفن طفلتها في قبر الزوجية مع كهل بغيض، إذا استحضرنا ما سبق أدركنا كيف أن الإشاعة في المجتمعات المتحفظة قد تقود إلى قرارات مصيرية خاطئة، وتدمر حيوات بريئة بغير ذنب سوى أنها وقعت بالصدفة المحضة في طريق إشاعة تتدحرج وتكبر بسرعة خاطفة ككرة الثلج.

وشبيهٌ بمصير "فتون"، المصيرُ الذي واجهته "أنس" حبيبة مبخوت، عندما دفعها شكُّ والديْها فيها إلى الزواج من شخص غريبٍ عنها لا تحمل له أيَّ مشاعر مودَّة، لا لشيءٍ سوى إطفاء جذوة الشك التي تشتعل في نفسيهما تجاه شرفها ومدى محافظتها عليه.

4-4: التلاعب بمشاعر القارئ واستفزاز قناعاته النائمة:

تلاعب عبده خال بمشاعر قارئه كثيرًا، فأرهقه في مواضع عديدة، واستفزَّ قناعاته العميقة النائمة، فكأنما هو (أي القارئ) مسافر في طريق وَعِرٍ مليءٍ بالحفر يتكبَّد مشقة عظيمة في رحلته، وبعد أن يبلغ به الجهد مبلغه -في طريقه المرسوم إلى النهاية بعناية بالغة- يقوده الكاتب إلى طريق سهل منبسط، فيهدّئ من روعه، ويلملم شعره الأشعث الأغبر، ويعيد ترتيب هندامه، ويدعوه إلى الاطمئنان -من جديد- إلى قناعاته التي تعرَّضت للهزّ العنيف. إنها لعبة خطرة بحق، فالقناعات المهزوزة قد لا تعود إلى سالف عهدها، وما طرأ عليها من صدوع ربما لن يلتئم ليعود كما كان قبل أن يستهدفه الكاتب بسهامه النافذة.

أبرز القناعات العميقة التي تتعرض للهزّ العنيف: ملامح شخصية المعتدي على الأطفال جنسيًّا، وطبيعة العلاقة بينه وبين الضحية.

تعوَّدنا أن نتصوَّر المعتدي على الأطفال وحشًا بشريًّا لا يستشعر براءة الطفولة ولا يقيم وزنًا لحقوقها في الحياة، وتعوَّدنا أن نتخيَّل العلاقة بينه وبين الطفل الضحية علاقة مضطربة متوترة، فهذا الأخير يحمل في أعماقه كراهية شديدة للأول، لأنه اعتدى على أخص خصوصياته، وحرمه من التمتُّع بحياة نفسية مستقرة.

في هذه الرواية، وبعد أن يضع الكاتب في طريق القارئ الإشارات الكافية للاعتقاد بأن مبخوتًا كان يعتدي على الصغيرة فتون قبل لحظة طرده بثوان، يصدمه مباشرة بهيام هذه الطفلة به، وتَوَهانها في عالم غرامه غيرَ قادرة على الخروج منه، وإفنائها عمرها في البحث عنه لأجل استعادته: "في كل زاوية تركت له كلمة شوق، ولوَّنت حياتي بحبه"، "لن أسامحه إن مات، فقد مَهَر حياتي به"، "جاء إلى مدينة جدة بنيَّة الإقامة الدائمة فاستوطن فؤادي، وغادر مُبْقِيًا كل شيء منه في داخلي: كلماته، حركاته، ابتساماته، أغانيه، رائحته، هيئته، صورته، فلا شيء في أعماقي إلا هو"[19]، "حين بلغْتُ التاسعة كان جسدي قد استعد للقفز عاليًا ليحملني أنثى حان قطافها". "قفزتُ من الطفولة إلى عالم النساء سريعا أحمل راية عشقي لمبخوت"[20].

أيمكن للمجرم أن يكون بطلاً بالنسبة إلى الضحية؟ أيمكن للأخير أن يقع في غرام الأول وهو الذي أعدم حظوظه في الحياة الكريمة؟

تنقبض نفسك وأنت تقرأ رواية يظهر فيها فعل الاغتصاب المشين–المستقبح في وعينا ولا وعينا- مرتبطًا بمشاعر الحب الصادقة العميقة العنيفة. وتتساءل: إلامَ يهدف القاص؟ أيهدف إلى تلطيف هذا الفعل القبيح وإلباسه ثوبًا لا يخلو من إنسانية ونبل؟

مشاعر مختلطة عنيفة تنتابك وأنت تقرأ ربما تحملك على ترك القراءة وإراحة نفسك من عناء تغيير صورة عميقة راسخة مفادها أن مغتصب الأطفال مجرم تجردت نفسه من كل إنسانية. وما يعمِّق شعورك بالغضب تلاعب القاص بك؛ففي لحظة يوهمك أن المتهم بريء، ثم يعود ليقدِّم –على امتداد مساحة نصية كبيرة- دلائل كثيرة وإيحاءات قوية على أنه أقدم على ذلك الفعل القبيح، ثم يعمل –بتدرج بطيء- على كشف أدلة البراءة الواحد تلو الآخر. وفي هذه الرحلة تتغير انطباعات القارئ عن مبخوت بطل الرواية وفقًا لزاوية مقدارها180 درجة، فيتحوَّل من صورة الجاني الذي نال جزءا يسيرًا مما يستحقه من عقاب،إلى صورة طيِّب القلب غريب الأطوار الذي قد تدفعه غرابة أطواره إلى انتهاك براءة الطفولة، ثم إلى صورة النبيل الوفي المخلص الذي تحمَّل كل الإساءات المعنوية والمادية من أجل الوفاء بعهد إسعاد الأطفال الذي قطعه على نفسه وهو صغير.

ومع نهاية الرواية تبلغ صورة مبخوت في ذهن القارئ الغاية القصوى في النقاء والصفاء، عندما يدرك أن مبخوتًا –ذلك الذي عشقته فتون العمر كله واحتفظت له بعذريتها دليل وفاء أبدي- لم ينظر إليها يوما إلا باعتبارها ابنته التي أسقطها رحم زوجته قبل اكتمالها، أو أخته التي فُجِعَ بفقدها وهي صغيرة.

ولا غرو -في ختام رحلة العواطف العاصفة التي انطلقت منذ العتبات الأولى للرواية- أن تنهمر دموع القارئ وهو يقرأ المشاهدالتي أفضى فيها

[19]-***لوعة الغاوية***، ص32 وما بعدها.
[20]-***لوعة الغاوية***، ص133.

مبخوت إلى ربّه على سرير المستشفى وكلٌّ من فتون وأنس "حبيبة عمره" تنتحبان مرتميتين فوق صدره.

لقد برَّأ الكاتب مبخوتًا، وحوَّله من صورة الشيطان في بداية الرواية إلى صورة الملاك في نهايتها، ولكن يبقى السؤال معلقًا: بعد هذا المشوار الطويل من التلاعب بمشاعر القارئ، أتبقى قناعاته العميقة كما هي؟ هل سيبقى فعلاً ينظر لمغتصب الأطفال باعتباره مجرمًا؟ ألم يجر في ذلك التصوُّر بعض التعديل غير الملاحظ الذي قد يدفعه إلى تقبُّل وجود علاقة حب عميقة بين المجرم والضحية؟ وإن لم يكن الأمر بهذه الفداحة، ألم يجر في تصوراته –على أقل تقدير- بعض التعديل الذي يجعله يتقبَّل فكرة التقرُّب المبالغ فيه من الأطفال الذي قد يندرج في خانة التحرُّش؟

إننا –بكل تأكيد- لانقصد بالتغييرات التي نشير إليها تحولاً واضحًا في المواقف يعلن عنه صاحبه بوضوح، وإنما نقصد البذور النفسية الأولى التي قد تمهّد على المدى الطويل لتلك المواقف.

ختامًا، إن العمل الروائي الناجح يعيد تشكيل رؤية قارئه للحياة والمجتمع. ولا أظن قارئًا لهذه الرائعة الروائية سيستمر في رؤيتهماكما كان يراهما قبل قراءتها. وبغض النظر عن الاتجاه الذي ستتخذه إبرة بوصلة فكر القارئ، لن يختلف اثنان –في تقديري- على قيمتها الفنية وعمق تأثيرها.